المملكة المغربية
جامعة السلطان مولاي سليمان
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
بني ملال

مجلة كلية الآداب
بني ملال

سنوية علمية محكمة تعنى بالعلوم الإنسانية

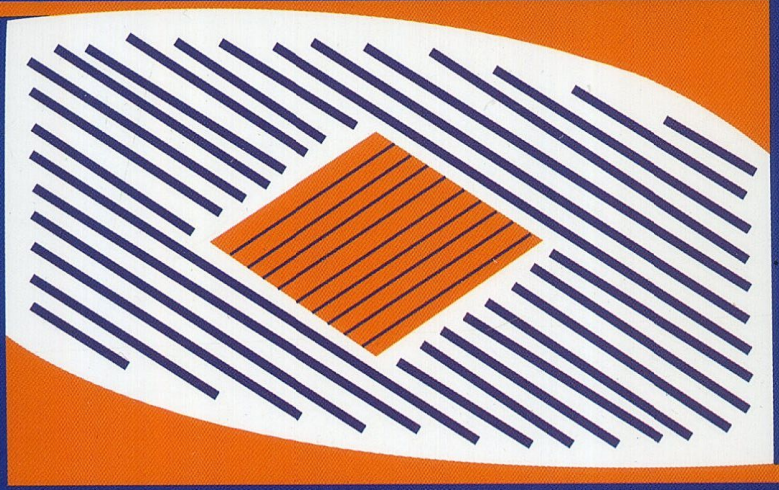

العدد 11
2010

الآخر في المجتمع الأندلسي: الهوية والصورة

محمد حقي
كلية الآداب بني ملال

ظل الآخر في كل المجتمعات والجماعات حاضرا في كل خطاباتها بشكل مستمر ومتواصل، وفرض هيمنته على جزء كبير من تفكيرها وتصرفاتها، بل تحول إلى محدد وموجه لكثير منها، فأثار ردود فعلها التي تراوحت بين التقبل والرفض وبين الذم والمدح وحتى السخرية. واعتمد تحديد الآخر على معايير تنطلق من الذات المعنية في شكل ذبذبات دائرية تتوسع حسب علاقات الدم والقرابة والعرق والمسكن/الموطن والعقيدة.

يحاول المقال الحالي تسليط الضوء على هذا الآخر في الذاكرة الجماعية لأهل الأندلس من خلال كتاب "أمثال العوام في الأندلس" لأبي يحي عبد الله بن أحمد الزجالي(617–694هـ /1220– 1296م)1. ويعود تأليف الكتاب إلى القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي مما يدل على أنه جمع خلاصة تفكير وتجربة أهل الأندلس منذ الفتح حتى وقت تأليفه(ستة قرون تقريبا)، خاصة وأن المثل يتطلب في تكوينه وقتا طويلا، بل أكثر من هذا فإن بعض الأمثال اشتق من أمثال عربية مشرقية مما يزيد من قدمها وعمقها في الزمن. ومادامت لغة الأمثال عربية فهذا يفرض كونها تعكس أساسا نظرة العرب إلى الآخرين، فلو توفرت أمثال بالأمازيغية والرومانس من نفس الفترة لتوسعت الصورة وصارت أكثر شمولا. وسيعمل المقال في حل إشكاليته على الإجابة عن سؤالين: من هو الآخر عند عامة الأندلس؟ وما هي خصائصه وصفاته؟

1 – الآخر: الهوية.

ركزنا في قراءة الأمثال وجمعها وتحديد تلك التي تهم موضوعنا على البحث عن الآخر خارج الذات الناطقة بالنص والمتقمصة لشخصية صانعه ومبدعه، وحصلنا على حوالي سبعين مثلا حددت هوية الآخر من خلال معايير: المكان والجنس (ذكر/أنثى) والقرابة والعرق والدين والوضع الاجتماعي من ناحية الحرية.

يخص المعيار الأول عنصر المكان حيث تتحدث الأمثال عن "براني" (مثل رقم 567/صفحة 129 – 293/1226) و "غريب"(394/1723).

ويحدد الآخر بالجار(1 و1/2 – 793 و180/794– 201/894 –233/1026 – 285/1238– 300/1290 –324/1403)

وهو ابن المدينة الأخرى(102/456– 103/457).

وهو من العدوة المغربية(287/1247– 433/1889).

ويعرف الآخر بالمقابلة بين الجنسين: الذكر/الرجل والأنثى/ المرأة. وتصور الثانية الأول من خلال أمثال عديدة(43/165– 229/1007– 239/1046– 245/1060) ونفس الشيء بالنسبة للأول(9/27– 9/38– 47/188– 51/201– 239/1046– 242/1048– 279/1204– 280/1210– 291/1254– 411/1792– 449/1951– 452/1965– 465/2027).

ويعتمد ضبط الهوية على القرابة بداية بالأخ (377/1654– 312/1347) ومرورا بالسلف (17/55) ووصولا إلى الجماعة (عشيرة–قبيلة–أهل الحي أو البلد...)(119/33– 98/439– 156/773– 181/798– 464/2023).

ويمثل العرق معيارا آخر للتحديد فهناك البربري (45/175– 194/854– 375/1644–404/1764–457/1985) والغزي(372/1631).

ويصنف الآخر بناء على الوضع من منظور الحرية والعبودية حيث يرد الحديث عن الصقلبي (119/527) والعربي (387/1692) والزنجي (6/16– 19/65– 64/262– 68/289– 246/1064– 266/1142– 329/1420– 396/1734– 421/1831– 461/2013).

وتمثل العقيدة آخر المعايير بتمييز اليهودي (11/31– 17/57– 144/642– 182/805– 202/899– 260/1116– 271/1170– 293/1264) والنصراني (260/1116– 293/1264).

ويصبح الآخر بناء على هذه المعايير كلها هو الأجنبي والجار والمرأة والرجل والأخ والصهر والجماعة والبربري والصقلبي والزنجي والغزي واليهودي والنصراني. فمن يتبقى من هذا المجتمع إن كان كل هؤلاء آخرين ليكون الأصيل والذات؟ إنه العنصر العربي والعنصر الإسباني (مسالمة/ مولدون ومستعربون). ويؤكد هذا الأمر؛ أولا، أن هذه الأمثال مصدرها عربي ولذلك تنقل كل تصوراته عن باقي العناصر وتدخره هو إذ لم تذكره إلا مرة واحدة وخصت العنصر الذليل منه فقط، وفي هذا تأكيد لهيمنة الثقافة العربية في هذا المجتمع. وثانيا، الأمثال خاصة بالحزب الأندلسي الذي تميز خلال القرن 4هـ/10م في مقابل الحزب البربري ومن ينضم إليه.

تظهر الأمثال الخاصة بالآخر أيضا أن هناك فئات حظيت بعناية أكبر(البراني–الجار– الرجل – المرأة – الجماعة – البربري – اليهودي)، وإذا تمعنا فيها نجد أنها العناصر التي تحضر باستمرار في الحياة اليومية للعامي وللناس عامة وتمثل تحديات لهم، فيردون عليها من باب التخفيف بالقدح والذم والسخرية أو المدح في حالات نادرة، ويبدأ التحدي من شريك الحياة(الزوج/الزوجة) ثم شريك الدرب(الجار) وشريك السكن (عشيرة – قبيلة – أسرة ممتدة) وشريك البلد أو المنطقة (البربري) وشريك المعاش والسوق والحياة الاقتصاية (اليهودي والزنجي: خدمات+تجارة). وسيظهر هذا التحدي أكثر عندما نعرض للصفات.

2 – صورة الآخر:

سنعمل في بحثنا عن توضيح الصورة على تتبع كل الأطراف بعرض الأمثال الخاصة بها وشرح مكونات الصفات ثم إبداء بعض الملاحظات عند الاقتضاء.

2–1 – البراني:

416 – اخرج من بلدك، وبل بالواقف(ص. 102).

457 – ادخل البلد وخذ من سيرة.(ص. 103)

467 – براني، ويطلب معاني(ص. 129).

1026 – زامر القري ما يلهي(ص. 233).

1226 – لعاب البراني حلو(ص.283).

1723 – غريب ويكل حلوا(ص.394).

يستنتج من هذه الأمثال أن "البراني" يبقى غريبا عن الجماعة التي يدخلها لذلك يلزم بمجرد الحلول بين ظهرانيها أن يأخذ بسيرة أهلها والتعود على عاداتهم قصد الاندماج فيها، لكن ذلك لا يعطيه الحق في أن يطمع في الحصول على نفس حقوق أهلها، أو يتدخل في عاداتهم وكلامهم لأنه مهما اندمج فلن يفهم بعض الدقائق والتفاصيل الصغيرة، وكل تجرؤ منه يعتبر فضولا وسخافة. ورغم هذا ف "البراني" يحظى ببعض الامتيازات خاصة ما يتعلق بإقبال الناس على ما يأتي به من أخبار وعادات تطربهم وتدخل السرور على نفوسهم ويقابلونها بالضحك والقبول، حتى ولو كانوا لا ينتبهون إليها إذا أتت من واحد منهم، وأكثر من هذا يباح له فعل ما يحرم عليه في بلده لأنه من جهة مجهول ومن جهة ثانية يستفيد من تغاضي الناس عنه وعن أفعاله.

والصورة تؤكد بعض العادات السائدة في هذا المجتمع وخاصة احترام الغريب واستقباله بحفاوة، والجماعة بهذا السلوك تريد أن ترسم صورة مشرقة لها في البلدان لتذكر بالخير والكرم والجود وتعد لأبنائها الأجواء ليستقبلوا بحفاوة إن هم تغربوا.

2-2 – الجار:

1 – إذا حج جارك بع دارك، وإن حج مرتين بعها بالدين(ص.1)

2 – إذا رأيت لحية جارك تنتف، اجعل متاعك في البال(ص.1).

793 – جارك القريب، أخير من أخوك البعيد(ص.180).

794 – جار بجاره، والعداوة خسارة(ص.18).

894 – خسارة إن لا يدري بها جارك فضل هي كلها(ص.201).

1238 – لطمت الجار مخلوف(ص. 285)

1290 – من اتكل على مريقة جارت، أصبحت كسيرت لراس(ص.300).

1403 – من اتكل على حر جارت، أصبح قول للندا(ص.324).

1851 – سعد من سعد بجار(ص.425).

تضع الأمثال الجار في منزلة الأخ بل أكثر، فالإقامة لا تطيب إلا بمصاحبته ومحبته، وسعادة المرء تكتمل بسعادة جاره، وكل سوء يصيبه فهو البداية ليلحق بمن هو قريب منه مما يفرض الاستعداد لتلك اللحظة والتضامن معه. وإذا كان الجار سيئا وجبت مغادرة البيت وبيعه فورا ودون تردد وحتى

بالخسارة، وهذا يشبه المثل السائر في المغرب الحالي: " الجار قبل الدار". ولأن الجار قريب جدا من جاره ويحتك به باستمرار فإن ذلك يتسبب في خلافات وخصومات تفرض على كل واحد التزام الحذر اتجاه صاحبه وعدم كشف كل أوراقه أمامه لأنه قد يكشف أسراره ويشمت به عند كل خلاف بينهما، كما لا يجب الاعتماد عليه كليا حتى لا يفوت عليه بعض الفرص ويضيع مصالحه.

تثبت الأمثال أمرين اثنين: إن العلاقات داخل هذا المجتمع أساسا مبنية على الدم والقرابة والمكان (المساكنة والجوار)، وثانيا سيادة الأخلاق الإسلامية التي تحفظ للجار حقه لحد اعتباره قريبا يحق له الإرث كما في الحديث النبوي.

2 – 3 – الجماعة:

119 – اخط مع الجماع، ولا تصب وحدك(ص.33)

439 – العق العسل مع الناس، ولا تلعق الخرا وحدك(ص.98).

452 – انصف الناس وشاركهم في أموالهم(ص.101).

773 – جماع تغن واحد(ص.156)

798 – حزن الجماع فرح(ص.181).

1347 – ما يقطع المقص إلا بأخوه(ص.312).

2023 – لا تسرق مع من سرق ولا تزن مع من زنا(ص.464).

133 – السلف، إما عداوة وإما تلف(ص.36).

264 – السلف تلف(ص.64).

462 – شورني ولا تعمل برايي(ص.104).

1382 – من طلب دين إن قديم، طلب شر إن جديد(ص.320).

1586 – صاحبني بحال أخوك، وحاسبني بحال عدوك(ص.360).

1654 – عند الضيق، لا أخو ولا صديق(ص.377).

تبرز الأمثال الحرص الشديد داخل هذه الأوساط على الانضواء داخل الجماعة ومسايرتها فيما تفعل ولو كان خطأ، فالفرح دونها حزن والحزن معها فرح، ولا يمكن إنجاز أي عمل إلا بها، وهي

تغني الفرد بينما الفرد لا يغنيها، لذلك عليه الاستشارة باستمرار حتى وإن كان لن يعمل برأي الآخرين. وحتى ينجح المرء في علاقته بالآخرين فعليه أن يحرص على العدل في معاملتهم ومحاسبتهم بصرامة وضبط بعيدا عن علاقات الأخوة. ومقابل هذه الصورة تبرز أخرى مضادة تماما، إذ ينصح المرء بأن لا يكون إمعة يتبع الناس في تصرفاتهم خاصة إذا تعلق الأمر بالخطإ (السرقة – الزنا)، كما أن الجماعة لا تنفع المرء عند كربته إذ يجد نفسه وحيدا منفردا، وإذا عاملهم أكلوا حقه وأنكروه عليه وعادوه بدل شكره.

يلاحظ أن الصورة متناقضة ومقسمة إلى شطرين متقابلين، شطر يدعو إلى التضامن الجماعي، وآخر يبشر بالفردانية ويؤكد عليها. ويمكن تفسير ذلك أولا، ببساطة عقلية العامي وتقلبها حسب المصالح الظرفية والطوارئ، وعدم قدرته على القيام بعملية تركيب تأخذ بعين الاعتبار الزمان والمكان والظرفيات. وثانيا باختلاف أصول الأمثال بين المراكز الحضرية الكبيرة حيث سلطة المال طاغية وعلاقات الجوار مهيمنة على علاقات الدم خاصة بعد القرن 4هـ/10م والمراكز الصغرى والبوادي حيث العشيرة والقبيلة وعلاقات الدم حاضرة بقوة مما يضعف نسبيا سلطة المال لصالح التكافل والتضامن الاجتماعي الأعمى المبني على القرابة الدموية، حتى ولو كان متصنعا ومتكلفا.

خلاصة الصورة أننا أمام مجتمع قبلي/عشائري مع ظهور بوادر علاقات فردية.

2 – 4 – الأقارب:

55 – إذا رأيت سلفك سل سيفك(ص.17).

1347 – ما يقطع المقص إلا بأخوه(ص.312).

يحيل المثل الأول على العداوة بين الأقارب خاصة بين السلفين (متزوجان من أختين)، حيث يسود التوتر والتنافس حول الصهر خاصة إذا كان غنيا، فكل واحد يبحث عن الحظوة عنده، فتصير العلاقة إلى العداوة ظاهرا وباطنا لحد التقاتل.

في الآخر يظهر أن الحياة لا تمكن إلا بالأخ وبدعمه ومساعدته، وهو ما يؤكد هيمنة علاقات الدم والقرابة.

2 – 5 – الرجل/الزوج:

165 – ازوجي قران قطيم وملتحي(ص.43).

1007 – زوج سو، خير من فقد(ص.229).

1046 – زوجة الشيخ مدلل، وزوجة الصبي مهول(ص.239).

1060طلاق شبش من كل حار برى(ص.245).

تنطلق النظرة من شريكته أو منافسته الزوجة بالأساس، فهو تحد أمامها عليها تجاوزه وسر غامض عليها كشفه. ويظهر أن الزوج مهما كان سيئا ضروري للمرأة وخير لها من أن تبقى عانسا أو مطلقة أو أرملة، إلا أنها تشترط في الرجل الذي تتزوجه أن يكون ملتحيا درءا للشبهة وضمانا لأن لا يكون قطيما يؤتى. والرجل غير مأمون لطيشه في شبابه واستعداده للخيانة مما يجعل الزوجة في هم وهوس باستمرار، وهو أيضا شهواني وغير وفي باستعداده للزواج والطلاق كلما أعجبته امرأة في أي حي وحارة. ولا يصبح الرجل مضمونا في يد الزوجة إلا عندما يشيخ وآنذاك يكثر من تدليلها وإرضائها.

والنظرة توافق مجتمعا أبويا حيث يشكل الرجل قاعدته الأساسية، فهو العامل والمنتج في الأسرة والضامن لحياة أفرادها ومعيشتهم وخاصة الزوجة، ولذلك فهي معرضة للضياع إذا افتقدت الزوج أو الأخ أو الأب، ومجتمعا يبيح تعدد الزوجات ويمجد فحولة الرجل التي تعتبر اللحية أحد معالمها حتى إنه كان ينظر إلى الأمرد نظرة نقص وريبة في رجولته.

2 – 6 – المرأة/الزوجة:

27 – إذا قالت البنت دد، فكر لها في مخد، وإن رفعت القدح لفمها، تحتاج ما تحتاج مها(ص.9).

38 – إذا رأيت المرا تمخط في قنعها، وتخرج المفتول بأصبعها لاتبق معها (ص.13).

188 – المرا المديد، ما تحتاج لقويدة(ص.47).

201 – التوفير في العانة، والدمار في الحير(ص.51).

1048 – طاعة النساء أفن، واتباعهن وهن(ص.242).

1204 – لس يدري أحد لامر قيمة حتى يتخذ مع سود(ص.279).

1210 – لس في النسا خير ولا فمي(ص.280).

1254 – من عند ولي عند بلي(ص.291).

1792 – قحبة مستور خير من حرة مشهور(ص.411).

1951 – ولا من يرفع ثيابهن من قدام(ص.449).

1965 – وي على من مات وخلى سبع بنات(ص.452).

2027 – لا تتق بقحبة ولو كانت أختك(ص.465).

تجمع الأمثال على ذم المرأة والتعريض بقلة عقلها وذاكرتها ونكرانها للجميل. فباستثناء التأكيد على أن المرأة الحرة صلاح للبيت عكس الأمة والذي يمكن اعتباره مدحا لها، فإن باقي الصفات قدح وذم. فالمرأة عديمة الرأي وكل اتباع لها يسبب الدمار والفساد وتعبير عن الضعف والوهن من قبل الرجل، وفي ذلك يدخل المثل الذي يتداوله المغاربة حاليا: "شورها ولا تعمل برايها"، وهي بلاء وعار وحمل ثقيل يجلب الفضيحة في الحياة وبعد الممات؛ ولذلك كان الأندلسيون عندما يعزون في المرأة يثيرون مسألة كونها قد سترت وتخلص المعزى من عارها اللاحق،[2] وهي شبقة وشهوانية وعاجزة عن التحكم في شهواتها الجنسية التي تظهر مبكرا ومنذ الطفولة، وهي ناكرة للجميل وسريعة النسيان للمعروف، وهي مهملة وغير حريصة على النظافة وغير قادرة على التغير وهذه الصفات تفرض على الرجل بمجرد ظهورها أن يتخلص منها. ولأن نقص المرأة واضح فيجب إبقاؤها مغمورة متوارية عن الأنظار وبعيدة و كل شهرة تجعلها أقل قيمة من البغي.

تجمع الأمثال على الوضعية الدونية للمرأة داخل هذا المجتمع وخاصة في أوساط العامة، وهذا ما تؤكده باقي المصادر إذ إن عدد النساء اللواتي اشتهرن قليل واقتصرن على بعض الإماء أو بنات الفئات الراقية في المجتمع مثل: ولاة بنت الخليفة المستكفي و حفصة بنت الحاج الركوني ونزهون والرميكية زوجة المعتمد بن عباد... وخوفا من عارها فقد كان كل من يتعرض لمحنة حصار أو أسر أو إسقاط عن حكم يبادر إلى قتل نسائه قبل أن يستسلم[3]. وإذا كان في هذا تجن على المرأة، فهو يعكس الأمية التي تنخر أوساط النساء والتي تكاد تصل إلى 100% لذلك تحافظن على سجيتهن وبساطتهن وتتصرفن وفق التقاليد المتوارثة وإذا توفر لهن ذكاء طبيعي تحول إلى مكر وشطارة وتسلط.

---

2 – انظر أطروحتنا " موقف أهل المغرب والأندلس من المرض والموت، كلية الآداب– جامعة محمد الخامس– أكدال– الرباط، 2001 (مرقونة) ص.288 ، وابن بسام، الذخيرة، ج3، تحقيق سالم مصطفى البدري، دار الكتب العلمية، بيروت،1998، ص. 218-219. أنظر كتابنا الموقف من الموت مطبعة مانيبال، بني ملال، 2007 ص 97 وابن بسام الأخيرة

3 – الموقف من الموت

2 – 7 – البربري:

175 – البربري والفار لا تعلم باب الدار(ص.45).

854 – حموا، وبني عموا(ص.194).

1247 – لولا دكال، ما خدمت البال(ص.287).

1644 – عطي للبربري شبر، طلب ذراع(ص.375).

1764 – فقوس البربر، خشن وحلو(ص.404).

1889 – شاهد دكالة، من قاع المطمورة(ص.433).

1985 – لاحر إلا زناتي، ولا فرس إلا مكلاتي(ص.457)

ترسم الأمثال صورة سوداء قاتمة للبربري في المجتمع الأندلسي، فعدا مدح زناتة بالحرية وما يتبعها من أنفة وكبرياء وكرم، والثناء على أهل دكالة بالقدرة على العمل(رغم أن فيه قدح بربطهم بخدمة الأرض)، وإثارة القوة الجنسية الكبيرة للبربري، فباقي الأوصاف قدح وذم بداية بالنعرة القبلية والتضامن القبلي/العشائري ومرورا بالغدر والطمع ووصولا إلى اللصوصية والسطو والغصب.

ويظهر أن هذه الأمثال في معظمها قد أنتجت بعد القرن 4هـ/10م، بعد الحرب الشرسة التي عرفتها الأندلس في بداية القرن الخامس الهجري/العاشر الميلادي، وكان البربر طرفا أساسيا فيها حتى إن المصادر تنعتها بالفتنة البربرية. وقد اتهموا بتخريب البلاد وتدميرها حسدا لأهلها وحقدا عليهم. وازدادت الأمور سوءا في عهد الطوائف عندما كان البربر الحزب الثالث في الصراعات، ثم على عهد المرابطين والموحدين عندما حكموا البلاد وأخضعوها لسلطانهم. وهذا كله أثار حقد وغيرة أهل الأندلس فلم يكن انتقامهم فقط بالسيف بل تجاوزه إلى اللسان والقلم في كل ما كتب أو تدوول وما الأمثال إلا جزء صغير منه.

2 – 7 – الزنجي:

16 – إذا رأيت الزنج، أبشر بالبواق(ص.6)

65 – أقل للأسود: أشكتعمل لو كنت سلطان؟ قال نخذ ألف مثقال ونهرب(ص.19).

262 – أسود على أسود هم ألا يرفد(ص.64).

289 – السود للسادة، والبيض للرمادة(ص.68).

1064 – طل ما تجد أسود، لا تسخر أبيض(ص.246).

1142 – كما خدمت سود تخدم بيض(ص.266).

1734 – غلام الجدم، لا يباع ولا يرمى(ص.396).

1831 – سود زنت، قال: قلة انكسرت(ص.421).

2013 – لا تعمل خصل إلا مع أسود(ص.461).

يلاحظ أن نصيب السود والزنوج من الأمثال مهم جدا، وقد يقوم هذا دليلا على كثرة العبيد والرقيق السود بهذه البلاد كانعكاس لانفتاحها على إفريقيا عبر المغرب، لحد أن الرق أصبح مقرونا بالسواد وأن الأسود لا يمكنه أن يكون شيئا آخر غير المملوك والعبد، واسترقاق أبيض انقلاب للوضع. وتلصق بهم صفات عديدة منها: الطاعة العمياء والنشاط في الخدمة وهي من صفاتهم الجميلة التي يتداولها النخاسون إذ يقولون:"والزنج والأرمن للكد والخدمة" و "الزنجيات أشد خلق الله وأجلدهم على الكد" و"النوبة أكثر الخلق إذعانا للموالي"[4]، ويجمعون بمجرد النفخ في بوق كما يفرقون بذلك، وقلة الطموح والتوق الدائم للحرية التي يفضلونها على أعلى المناصب، والسرقة التي يقول عنها السقطي: " والنوبة(...) فيهم السرقة وقلة الأمانة"[5]، والإباق، وحب الموسيقى لحد الهوس فبمجرد ما تحرك آلة موسيقية مثل البوق يسرعون إلى الرقص في حالة هستيرية ولا إرادية، والزنى المستشري في أوساط الإناث حتى إنه يقابل باللامبالاة من قبل الناس، أما الذكور فهم فحول أقوياء على النكاح، حيث كان القطم والشواذ يتخذونهم لهذا الغرض[6]، وفي ذلك يقول ابن الياسمين الإشبيلي:[7]

4 – السقطي، في آداب الحسبة، المطبعة الدولية، باريس، 1931، ص.50.

5 – نفسه.

6 – " كان في درب ابن زيدون [في قرطبة] رجل مشهور بهذا الشأن ينام في أسطوان داره، ويترك القفل على الباب يتمكن فتحه فإذا رآه سارق على تلك الحال عالج الباب ودخل، **فيمسكه القطيم، وكان له عبدان يربحهما بهذا الشأن**" ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، تحقيق شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، 1978، ص.177.

7 – الزجالي، نفس المصدر، ج2 ، ص.461 (هامش).

يعيون حبي للسواد جهالة & وما علموا ما فيه لي من مآرب

أهين لقصدي ربه وهو خادم & إذا ما علا فوقي بمجداف قارب

وعندما يكثر عدد الخدم عامة يتحولون إلى عبء على سادتهم لما يتطلبونه من نفقات، ونفس الشيء إذا شاخوا فهم يفقدون كل فائدة ويلزم السادة بالاحتفاظ بهم ضمانا لحياتهم.

2-7 – الصقالبة:

527 – القطم فأرض الصقالبة(ص.119).

الصقالبة عبيد بيض من الجنس الآري السلافي الأصفر يجلبون من أوربا الشرقية على يد اليهود الذين يخصونهم في غاليا قبل نقلهم إلى الأندلس حيث يباعون للخدمة في بيوت السادة وخاصة الأمراء. ورغم أنهم يقومون بخدمات متنوعة فقد اشتهروا في الخدمات الإدارية والعسكرية أكثر من غيرها. واستخدمهم الأمويون منذ عهد عبد الرحمن الداخل، وبلغت أعدادهم أوجها في ظل الخلافة على عهد الناصر وابنه المستنصر ثم الحجاب العامريين، وكان لهم نصيبهم من الأندلس في عهد الطوائف خاصة في شرق البلاد. ولأن أغلب هؤلاء تعرضوا للخصاء فقد اتخذهم بعض الشواذ للمتعة الجنسية بدل النساء، فلصقت صفة الشذوذ بهم. ويلاحظ هنا أن البيض/أهل الشمال ينعتون بالشذوذ عكس أهل الجنوب/سود وسمر الذين يوصفون بالقوة الجنسية والفحولة.

2 – 7 – اليهود:

31 – إذا رأيت اليهودي يذم السلع، ادر أنه يشتريه(ص.11)

57 – إذا أفلس اليهودي، يفتش دفاتر ولد(ص.17).

642 – بحل ربي في شنوغ يتحرك ويزق(ص.144).

805 – حاج بقطاع، يهودي يقضيها(ص.182).

899 – خناف يجلس فوق ضياف(ص.202).

1692 – عرب البطاح يغرم الجزي اليهودي(ص.387).

1116 – كل مع يهودي، وارقد مع نصراني(ص.260).

1170 – لس يفزع فرس طبال بيود دوراه(ص.271).

1264 – من فتح حانوت للتجارة، يبيع من يهود ونصارى(ص.293).

شكل اليهود في الأندلس أقلية مهمة داخل المجتمع، واندمجوا فيه منذ الفتح بالمشاركة في فتح الحصون والمدن وتسييرها بعد ذلك. ومكنهم هذا الأمر من الحصول على امتيازات كثيرة وعايشوا الناس الذين عاملوهم دون قيود ولا شروط. واشتغلوا في مهن محددة مثل: التجارة التي يفضلونها أكثر من غيرها، والوساطة التجارية والوكالة، وصنائع خاصة السباكة، ووظائف إدارية خاصة المالية كالصرافة ودور السكة والجباية. وكانت نتيجة ذلك سلطة قوية خاصة في عصر الطوائف في غرناطة وطليطلة. ورغم هذه المكانة فصورة اليهودي سيئة، فهو المخادع واللئيم والقذر الإقامة والسكن والمرابي والدائن الذي لا يرحم ولا ينسى. ولم يمدح إلا بنظافة الأكل.

يبدو أن اليهودي رغم اختلاطه بالناس لم يكن محبوبا ولا محترما لما عاناه الناس من ظلمه وتعسفه كرجل سلطة ومال وتجارة.

2 – 7 – النصارى:

1116 – كل مع يهودي، وارقد مع نصراني(ص.260).

1264 – من فتح حانوت للتجارة، يبيع من يهود ونصارى(ص.293).

ظل النصارى يشكلون أغلبية المجتمع الأندلسي، وصار يطلق عليهم أسم المستعربين. وساكنوا الناس في المدن والبوادي، إلا أن قلة الأمثال عنهم؛ ربما، تدل على قلة تأثيرهم في الحياة اليومية وكذلك ضعف تأثيرهم، وقد يكون ذلك راجعا إلى تخلفهم الحضاري وقلة اصطدامهم بعامة الناس وضعف حضورهم في حياتهم اليومية. ويركز المثلان على أن النصراني يهتم كثيرا بنظافة مسكنه وفي هذا مدح له، لكنه مقابل ذلك يهمل نظافة مأكله وقد يكون ذلك بسبب أكله لحم الخنزير وعدم تزكية الدجاج... كما أن معاملة الناس له تتم دون قيود أو حدود ولا يحرم من أي حقوق.

2 – 7 – الغز:

1631 – ضيافة الغز، اللحم والبيض(ص.372).

إن لم يكن في كلمة "غز" أي تحريف كما ناقش محقق الكتاب ذلك، فالغز فرقة من الترك دخلوا المغرب في عهد المنصور الموحدي الذي ألحقهم بجنده، ووطن عددا منهم في الأندلس، وأقطعهم الأراضي والضياع، وبذلك صاروا يؤثرون في المجتمع، ومع ذلك حافظوا على بعض عاداتهم في التغذية خاصة اللحم والبيض الذي يقدم في المناسبات الكبيرة التي تعرف حضور ضيوف غرباء.

خاتمة:

بينت الدراسة أن دائرة الآخر في المجتمع الأندلسي واسعة، وتتمحور حول ابن البلد الذي يمثله العرب والإسبان أساسا، بينما باقي العناصر من بربر وصقالبة وزنوج وغز ويهود أجنبية و"برانية". وتحدد العلاقات على شكل دوائر تنطلق من نواة المجتمع الرجل والمرأة، ثم تتسع إلى أن تصل إلى اليهودي والنصراني العنصران الأكثر غرابة بناء على عنصر العقيدة التي شكلت محور الحياة في هذا المجتمع. وحددت هوية الآخر بناء على عناصر الجنس والجوار والدم والقرابة والحرية والعبودية والعقيدة. ويغلب على الصورة المرسومة للآخر طابع السلبية والسواد، مما يكشف عن طبيعة ذهنية العامة السريعة التقلب وغير القادرة على إصدار أحكام معقلنة. وعكست صورة الآخر كل خصائص هذا المجتمع، فهو مجتمع قبائلي عشائري مع ظهور علاقات الجوار التي عرفتها المدن، مما يجعل التكافل والتعاون وسيطرة الجماعة مهيمنة، وهو أبوي يعطي النفوذ والقوة للرجل ويهمش المرأة ويحتقرها، وهو يعرف العبودية والعنصرية الجنسية/العرقية والدينية مع تسامح واضح. وهو في الأخير مجتمع يعرف ترسخ بعض العادات والتقاليد الإسلامية مثل: حسن الجوار والتكافل.

الآخر في المجتمع الأندلسي